
المادة: العقيدة والأديان
المقرر: علم الأديان
الأستاذ الدكتور يوسف الكلام



أكاديمية نماء
للعلوم الإسلامية والإنسانية



المحاضرة السادسة



تفاسير قوله تعالى من سورة البقرة: (كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً)

القول الأول: أنهم كانوا على دين واحد وهو الإيمان والحق، وهذا قول أكثر المحققين، ويدل عليه وجوه، الأول:

1- ما ذكره القفال فقال: الدليل عليه قوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ ...

الرازي (606هـ)، مفاتيح الغيب



2- أنه تعالى حكم بأنه كان الناس أمة واحدة، ثم أدرجنا فيه فاختلفوا بحسب دلالة الدليل عليه، وبحسب قراءة ابن مسعود، ثم قال: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾...

الرازي (606هـ)، مفاتيح الغيب



3- أن آدم عليه السلام لما بعثه الله رسولاً إلى أولاده، فالكل كانوا مسلمين مطيعين لله تعالى، ولم يحدث فيما بينهم اختلاف في الدين، إلى أن قتل قابيل هابيل بسبب الحسد والبغي، وهذا المعنى ثابت بالنقل المتواتر، والآية منطبقة عليه، لأن الناس هم آدم وأولاده من الذكور والإناث، كانوا أمة واحدة على الحق، ثم اختلفوا بسبب البغي والحسد، كما حكى الله عن ابني آدم ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْأَخَرِ﴾ [المائدة: 27] فلم يكن ذلك القتل والكفر بالله إلا بسبب البغي والحسد، وهذا المعنى ثابت بالنقل المتواتر والآية منطبقة عليه.

الرازي (606هـ)، مفاتيح الغيب



4- أنه لما غرقت الأرض بالطوفان لم يبق إلا أهل السفينة، وكلهم كانوا على الحق والدين الصحيح، ثم اختلفوا بعد ذلك، وهذه القصة مما عُرف ثبوتها بالدلائل القاطعة والنقل المتواتر...

الرازي (606هـ)، مفاتيح الغيب



5- وهو أن الدين الحق لا سبيل إليه إلا بالنظر، والنظر لا معنى له إلا ترتيب المقدمات ليتوصل بها إلى النتائج، وتلك المقدمات إن كانت نظرية افتقرت إلى مقدمات أخرى ولزم الدور أو التسلسل، وهما باطلان فوجب انتهاء النظريات بالآخرة إلى الضروريات، وكما أن المقدمات يجب انتهاؤها إلى الضروريات فترتيب المقدمات يجب انتهاؤه أيضاً إلى ترتيب تعلم صحته بضرورة العقل، وإذا كانت النظريات مستندة إلى مقامات تعلم صحتها بضرورة العقل، وإلى ترتيبات تعلم صحتها بضرورة العقل، وجب القطع بأن العقل السليم لا يغلط لو لم يعرض له سبب من خارج...

الرازي (606هـ)، مفاتيح الغيب



6- قوله عليه السلام: "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه"، دل الحديث على أن المولود لو ترك مع فطرته الأصلية لما كان على شيء من الأديان الباطلة، وأنه إنما يقدم على الدين الباطل لأسباب خارجية، وهي سعي الأبوين في ذلك وحصول الأغراض الفاسدة من البغي والحسد.

الرازي (606هـ)، مفاتيح الغيب



7- أن الله تعالى لما قال: ﴿أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: 172] فذلك اليوم كانوا أمة واحدة على الدين الحق، وهذا القول مروي عن أبي بن كعب وجماعة من المفسرين.

إلا أن للمتكلمين في هذه القصة أبحاثاً كثيرة، ولا حاجة بنا في نصرة هذا القول بعد تلك الوجوه الستة التي ذكرناها إلى هذا الوجه، فهذا جملة الكلام في تقرير هذا القول.

الرازي (606هـ)، مفاتيح الغيب



القول الثاني: هو أن الناس كانوا أمة واحدة في الدين الباطل، فهذا قول طائفة من المفسرين كالحسن وعطاء وابن عباس، واحتجوا بالآية والخبر أما الآية فقوله: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ وهو لا يليق إلا بذلك.

وأما الخبر فما روي عن النبي عليه السلام: " أن الله تعالى نظر إلى أهل الأرض عربهم وعجمهم فمقتهم إلا بقايا من أهل الكتاب ". وجوابه: ما بينا أن هذا لا يليق إلا بضده، وذلك لأن عند الاختلاف لما وجبت البعثة. فلو كان الاتفاق السابق اتفاقاً على الكفر لكانت البعثة في ذلك الوقت أولى، وحيث لم تحصل البعثة هناك علمنا أن ذلك الاتفاق كان اتفاقاً على الحق لا على الباطل..

الرازي (606هـ)، مفاتيح الغيب



ثم اختلف القائلون بهذا القول أنه متى كان الناس متفقين على الكفر فقيل من وفاة آدم إلى زمان نوح عليه السلام كانوا كفاراً...

الرازي (606هـ)، مفاتيح الغيب



القول الثالث: وهو اختيار أبي مسلم والقاضي: أن الناس كانوا أمة واحدة في التمسك بالشرائع العقلية، وهي الاعتراف بوجود الصانع وصفاته، والاشتغال بخدمته وشكر نعمته، والاجتناب عن القبائح العقلية، كالظلم، والكذب، والجهل، والعبث وأمثالها.

الرازي (606هـ)، مفاتيح الغيب



﴿كان الناسُ أمةً واحدةً﴾ أي ذوي أمة واحدة أي أهل ملة واحدة وعلى دين واحد فحذف المضاف واختلف في أنهم على أيّ دين كانوا، فقال قوم إنهم كانوا على الكفر وهو المروي عن ابن عباس في إحدى الروايتين والحسن واختاره الجبائي ثم اختلفوا في أيّ وقتٍ كانوا كفاراً فقال الحسن: كانوا كفاراً بين آدم ونوح، وقال بعضهم: كانوا كفاراً بعد نوح إلى أن بعث الله إبراهيم والنبيين بعده، وقال بعضهم: كانوا كفاراً عند مبعث كل نبي وهذا غير صحيح لأن الله بعث كثيراً من الأنبياء إلى المؤمنين.

الطبرسي (ت548هـ)، مجمع البيان في فسير القرآن



فإن قيل: كيف يجوز أن يكون الناسُ كلهم كفاراً والله تعالى لا يجوز أن يُخْلِي الأرض من حجة له على خلقه، قلنا: يجوز أن يكون الحق هناك في واحد أو جماعة قليلة لم يمكنهم إظهار الدين خوفاً وتقية فلم يعتد بهم إذا كانت الغلبة للكفار.

الطبرسي (ت548هـ)، مجمع البيان في فسير القرآن



استنتاج

من خلال التفاسير السابقة، نلاحظ أن غالبية المفسرين اعتبرت أن الأصل هو التوحيد، وأن الناس كانوا أمة واحدة على توحيد الله تعالى، ثم اختلفوا بعد ذلك وزاغوا عن عقيدة التوحيد، فبعث الله لهم الأنبياء لهدايتهم من جديد، في حين أشار بعضهم إلى: أنهم كانوا على الكفر، وهذا قول ابن عباس والحسن. مع أن المسلمين جميعا متفقون على أن أصل الإنسانية هو آدم وكان موحدا بلا شك.

كيف يرى الغربيون نشأة الدين، وأيهما أسبق في نظرهم التوحيد أم الشرك؟



النظريات الغربية في تفسير نشأة الدين



بدأ اهتمام الغربيين (علماء الاجتماع) بالظاهرة الدين ومحاولة تفسيرهم لنشأة الدين في المجتمعات الإنسانية منذ منتصف القرن التاسع عشر

أمثال:

Herbert Spencer,(1820-1903), principe de sociologie

Émile-Louis Burnouf, (1821-1907), la science des religions

Max Müller (1823-1900), Origine et développement de la religion

Edward Burnett Tylor (1832–1917), Civilisation Primitive,

Émile Durkheim (1858-1917) Les formes élémentaires de la vie religieuse



أسباب اهتمام الغربيين بدراسة نشأة الدين في المجتمعات الإنسانية

- كون جلهم من علماء الاجتماع
- اطلاعهم على مجتمعات إنسانية جديدة
- كون الدين من أهم مواضيع علم الاجتماع
- دور الدين في هذه المجتمعات الإنسانية الجديدة
- اطلاعهم على الحضارة الإسلامية



حدود الاتفاق والاختلاف بين علماء الغرب

اتفاق جل علماء الغرب على:

- أن الدين ظاهرة لازمة لكل مجتمع
- أن الدين نشأ مع ظهور الإنسان

اختلاف علماء الغرب في سبب نشأة الدين إلى القول بنظريتين

- الأولى: النظرية التطورية
- الثانية: النظرية التأليهية



النظرية التطورية

ومعناها: أن الدين شأنه في ذلك شأن كل المجالات الإنسانية بدأ متخلفا بسيطا ثم بدأ يتطور مع تطور الإنسان، فالدين -كما يقول عباس محمود العقاد وهو متأثر بهذه النظرية-: يرقى الإنسان في العقائد كما يرقى في العلوم والصناعات.

النظرية التأليهية

ويرى أصحابها أن مصدر الدين هو الوحي، وقالوا بفطرة فكرة الإله، إذ لاحظوا أن كل المجتمعات مهما تنوعت ففكرة وجود الإله أو وجود ذات علوية فكرة أصيلة فيها، وإنما الاختلاف ربما هو في طريقة التعبير عنها.



مذاهب النظرية التطورية

- المذهب الإحيائي الروحي
- المذهب الطبيعي
- المذهب الاجتماعي

ترى هذه المذاهب جميعها أن الدين بدأ بدائيا مع الإنسان البدائي ثم بدأ يتطور مع تطور الإنسان إلى أن بلغ أرقى مراتبه، واتفقت جميعها أن معرفة نشأة الدين تقتضي الرجوع إلى تاريخ الإنسان البدائي ومعرفة المظاهر الدينية عنده، ولما اكتشفت القبائل البدائية في أستراليا وإفريقيا رأى هؤلاء أن هذه القبائل تمثل نموذج الإنسان البدائي، وأن دراسة هذه القبائل تمكن من معرفة نشأة الدين لدى الإنسان الأول.



المذهب الإحيائي animism، وتزعمه عالمان هما:

أولهما: العالم البريطاني

Herbert Spencer,(1820-1903), principe de sociologie, 1ère partie, Chap. X

ثانيهما: العالم البريطاني

Edward Burnett Tylor (1832–1917), Civilisation Primitive, Chap. XI

ويريان أن أول أشكال الدين هي عبادة الأرواح

انطلق المذهب الإحيائي من ثلاثة أسئلة رئيسة هي:

- كيف عرف الإنسان مفهوم الروح؟
- كيف اكتسب مفهوم الروح القدسية وأصبحت الروح موضوع عبادة؟
- كيف انتقل الإنسان من عبادة الروح إلى عبادة الطبيعة؟



وللجواب على السؤال الأول المشار إليه أعلاه، كيف عرف الإنسان مفهوم الروح؟
يرى العالم البريطاني الأنتربولوجي «تايلور» أن الإنسان توصل إلى وجود الروح من طريقين:

الأول: عن طريق الأحلام، فالإنسان البدائي لم يكن يميز بين الحقيقة والأحداث التي يراها في أحلامه، وكان يعتبرها حقيقة، فإذا رأى في حلمه أنه سافر أو قام بعمل أو زار صديقا فكان يعتقد أنه فعل ذلك حقيقة، وفي الآن نفسه كان يعلم علم اليقين أن جسده لم يغادر محله أثناء نومه.

الثاني:
حالات فقدان الوعي كالجذب والجنون والصرع التي تصيب الإنسان والتي تجعله يقوم بأفعال لا يستطيع فعلها وهو في حالته الطبيعية.



من هنا اعتقد أنه عبارة عن ذاتين، ذات بقيت في مكانها أثنا النوم وفي الحالات الطبيعية، والثانية هي التي غادرت وتجولت بعيدا أثناء نومه، وارتكبت تلك الأفعال وصرحت بتلك الأقوال أثناء حالات الصرع



خصائص هذه الروح

استنتج الإنسان البدائي من هذا أن هذه الروح لها خصائص غير خصائص الجسد؛ ذلك أن الروح يجب:

- ✓أن تكون كبيرة السرعة حتى تنتقل وتعود إلى الجسد خلال النوم أو الصرع
- ✓أن تتميز بالمرونة والانسياب حتى تتمكن من الخروج من الجسد والعودة إليه بسهولة
- ✓أنها غير مرئية وغير مدركة
- ✓لها من القوة ما يمكنها من الظهور للبشر في المنام أو في اليقظة على شكل شبح
- ✓لها قوة تمكنها من الدخول في الأجساد المختلفة وليس جسدها الأول فقط



وللجواب على السؤال الثاني: كيف اكتسب مفهوم الروح القدسية وأصبحت الروح موضوع عبادة؟

يرى تايلور أن الموت هو الذي أعطى للروح هذه القدسية؛ إذ اعتبر البدائي أن الموت نوم أبدي، وأن الروح التي تغادر الجسد بعد الموت تبقى حرة طليقة في الكون، وحيث إن هذه الأرواح هي أرواح بشرية فلها نفس حاجيات البشر، ومنها الخيّر ومنها الشرير، ولخصائصها المذكورة يمكنها أن تتلبس أي جسد حي وتحدث له خيرا أو شرا، وهذا ما جعل الإنسان يبحث عن رضاها ويتقي شرها، وبدأ يقدسها ويصلي لها اتقاء لشرها ويبني لها الشواهد والأضرحة، وبهذا كانت أولى العبادات هي عبادات الأضرحة والمقامات التي أقامها الإنسان البدائي لهذه الأرواح



وللجواب على السؤال الثالث، كيف انتقل الإنسان من عبادة الروح إلى عبادة الطبيعة؟ يرى تايلور أن الإنسان البدائي كالطفل لا يميز بين الأشياء الجامدة والأشياء الحية، ويعتبر الأشياء كلها مثله شبيهة به، وأن الأرواح المتجولة قد تحل في الجمادات كما تحل في الحيوانات والبشر، ومن هنا جاءت عبادة الطبيعة من أشجار وجبال وأنهار..



ويرى سبينسر خلافا لتايلور أن الإنسان البدائي لم يكن كالطفل لا يميز بين الأشياء الجامدة والأشياء الحية، ويعلل انتقال العبادة من الأرواح إلى الحيوان والجمادات بكون البدائي كان يسمي الأشخاص بأسماء الحيوان والطبيعة فيلقب أسلافه باسم الأسد أو الجبل.. وبعد وفاة الأسلاف يصبح هؤلاء موضوع عبادة، ومع مرور الزمن ينسى خلف الإنسان البدائي أن الأسد الذي عبده أجداده ويعبده هو لقب لسلفه وتنتقل بذلك العبادة إلى الحيوان أو الجماد الذي لقب به السلف.



تفاسير قوله تعالى من سورة البقرة: (كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَة)

كان الناس أمة واحدة متفقين على دين الإسلام فبعث الله النبيين يريد: فاختلفوا فبعث الله. وإنما حذف لدلالة قوله: (ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه) عليه. وفي قراءة عبد الله: كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله. والدليل عليه قوله عز وعلا (وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا).

الزمخشري (ت538هـ)، الكشاف



وقيل: كان الناس أمة واحدة كفارا، فبعث الله النبيين، فاختلفوا عليهم. والأول الوجه. فإن قلت: متى كان الناس أمة واحدة متفقين على الحق؟ قلت: عن ابن عباس رضى الله عنهما: أنه كان بين آدم وبين نوح عشرة قرون على شريعة من الحق فاختلفوا.

الزمخشري (ت538هـ)، الكشاف



وقيل: هم نوح ومن كان معه في السفينة (وأنزل معهم الكتاب) يريد الجنس، أو مع كل واحد منهم كتابه ليحكم الله، أو الكتاب، أو النبي المنزل عليه فيما اختلفوا فيه في الحق ودين الإسلام الذي اختلفوا فيه بعد الاتفاق. (وما اختلف فيه في الحق إلا الذين أوتوه) إلا الذين أوتوا الكتاب المنزل لإزالة الاختلاف، أي ازدادوا في الاختلاف لما أنزل عليهم الكتاب...

الزمخشري (ت538هـ)، الكشاف


أكاديمية نماء
للعلوم الإسلامية والإنسانية